# تشكلات النسق في خطبة المعز لدين الله الفاطمي

م٠د زينب علي عبيد
كلية التربية للعوم الإنسانية/ جامعة بابل
Zainb.hum2016@gmail.com

ملخص البحث

الدولة الفاطمية؛ هي إحدى دول الخلافة الإسلامية، وهي أول خلافة شيعية اتخذت الإسماعيلية مذهباً رسمياً لها، وقد أصبح الأدب وسيلة لنشر العقائد المذهبية، فكانت الخطابة أهم مُنتَج ثقافي؛ بوصفه خطاباً مؤسساتياً قادراً على صياغة معاني جديدة ضمن معطيات السلطة، ولم يحظ هذا الأدب بنصيب وافر من الدراسات والبحوث كآداب المراحل التاريخية الاخرى، لذا فقد وقع الاختيار على خطبة المعز؛ لأنها تتشكلُ من زخم معرفي ثقافي قائم على علاقة السلطة بالآخر. وهو كخطاب محكوم بآليات، تتيح للدارس القدرة على كشف انساق الثقافة عبر حركية النسق وفق الطرح السياسي والاجتماعي والديني الذي أنتج هذا الخطاب وسوقه.

وقد انقسم البحث على ثلاثة مطالب: المطلب الأول تاريخي؛ يقوم على التعريف بالدولة الفاطمية نظراً للتعتيم الكبير الذي يحيط بهذه الدولة. والمطلب الثاني؛ يقوم على تشكلات النسق بين اللفظ والمعنى، أمّا الثالث والأخير؛ فهو تشكلات النسق بين الحقيقة والمجاز. ثم خاتمة تضمنت أهم الاستنتاجات ولائحة بالمصادر والمراجع ٠

**الكلمات المفتاحية:** النسق – الخطبة – المعز لدين الله

**Abstract**

The Fatimid state is one of the Islamic Caliphates. It is the first Shiite caliphate that has taken Ismailia as an official doctrine. Literature has become a means of propagating doctrinal doctrines, and rhetoric has been the most important cultural product; it is an institutional discourse capable of formulating new meanings within the parameters of power. So the Moez sermon was chosen because it consists of a cognitive cultural momentum based on the relation of power to the other. It is a discourse governed by mechanisms, which allows the student the ability to reveal the patterns of culture through the dynamics of the pattern according to the political, social and religious issue that produced this speech and market.

The research was divided into three demands: the first is historical; it is based on the definition of the Fatimid state because of the great obscurity that surrounds this state. The second requirement is based on the formations of the pattern between the word and the meaning. Either third or last; it forms the pattern between reality and metaphor. Finally, it included the most important conclusions and a list of sources and references.

**Keywords**: The Layout- The engagement- Al-Moez Ladin Allah

**أولا: التعريف بالدولة الفاطمية ٠**

إن الاختلاف حول امكانية التعريف بالفاطميين قائم على أساس محاولات كثيرة لاكتشاف جذورهم، وكيفية نشوئهم وارتقائهم ثم تراجعهم وانتهاء خلافتهم ٠

فالدولة الفاطمية توصف بأنها أنموذج واضحٌ للدولة المذهبية في التاريخ الإسلامي، فهي دولة شيعية قامت على أساس انتسابها إلى رسول الله محمد (صلى الله عليه واله وسلم) من طريق علي بن أبي طالب (عليه السلام) وفاطمة

الزهراء (عليها السلام) يترأسها الإمام الذي يحكم كمرشد ديني وروحي وصاحب السلطة المستمدة من الله، ولها مذهب خاص هو المذهب الاسماعيلي نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق [١]. وتوصف بأنها الخلافة الشيعية الوحيدة في الإسلام [٢].

ويقسّم المؤرخون التاريخ الفاطمي خلال مدّته الكلاسيكية على طورين الأول طور شمال أفريقياً دام أكثر من ستين سنة، من إنشاء الحكم الفاطمي في شمال إفريقيا سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، حتى الفتح الفاطمي لمصر عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وتحويل مقر الخلافة إلى هناك سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م [٣]. أما الطور الثاني فيغطي حوالي ١٢٠ سنة من ٣٦٢هـ/٩٧٣م، حتى وفاة الإمام الخليفة المستنصر عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[٤].

اما الطور الأول فيتمثل بجهود الأئمة الاسماعيليين إلى نشر دعوتهم في كثير من البلدان الإسلامية[٥]. وقد لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً في بلاد المغرب وشمال إفريقيا نتج عنها قيام الخلافة الفاطمية بتلك البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري؛ وكانت مصر تحت سيطرة السلطان العثماني في وقتها[٦]. وقد عملت الفرق الشيعية عن طريق شبكة الدعاة من ان تسيطر فكرياً وروحياً على مُوجِهات التفكير في العالم الإسلامي. ومن خلاله تمكنوا من تأسيس الدولة الفاطمية، في خلافة(المعز لدين الله) [٧] الذي تمكن بسياسته الذكية من التوسع شرقاً، لإدراكه بعدم صلاحية المغرب لتكون مركزاً لدولتهم لذا اتجهت أنظارهم إلى مصر لما تتماز به من موقع جغرافي فريد في قلب العالم العربي يتيح لها فرصة التمدد نحو المراكز الإسلامية مثل مكة والمدينة ودمشق، فتمكنوا من السيطرة على مصر، بعد صراع دام لسنوات توج بحملة قادها (جوهر الصقلي)[٨] تمكنت من ضم مصر إلى حوزة الفاطميين [١]، ليبدأ الطور الثاني من أطوار الدولة الفاطمية

---

(١) ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-، فرهاء دفتري، تر:سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠١٤: ٢٧-٢٨ .

(٢) ينظر: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية -منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري- د.موسى لقبال، الشركة الوطنية، الجزائر، د.ط، د.ت: ٣٣٣.

(٣) ينظر: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية: ٢٦٠. وينظر: تاريخ الدولة الفاطمية، د.محمد جمال سرور، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٥: ١١ وما بعدها .

(٤) ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٠٦.

(٥) ينظر: رسالة افتتاح الدعوة -رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية-، للقاضي النعمان بن محمد (ت٣٦٣)، تح: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧: ١٠.

(٦) ينظر: تاريخ الدولة الفاطمية: ١١-١٢-١٣.

(٧) وهو الخليفة الفاطمي الرابع تولى الخلافة سنة (٣٤١هـ-٣٦٥هـ).

(٨) هو قائد الجيوش الفاطمية وقد اعتقه الفاطميون ويذكر انه من أصل سلافي وقد حمل نعوتاً متنوعة، مثل الصقلي (من صقلية) والصعلبي (او السلاقي) والروحي (او الإغريقي) ثم ترقى في المراتب ليصبح كاتباً للخليفتين المنصور والمعز، وبعدها قائداً لجيوش الخليفة المعز، ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-:

التي أصبحت مركز الخلافة الفاطمية وعاصمتها سميت أولاً بالمنصورية وثم سميت بالقاهرة، وقد اهتم الفاطميون بالحياة الاجتماعية فانمازت بمظاهر البذخ والترف[٢]. قل ان نجد لها مثيلاً في أي عصر من عصور مصر الإسلامية. واهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية في شيء كثير من الأبهة والعظمة، كما اهتموا بالجوانب الثقافية فعملوا على نشر الثقافة العلمية والأدبية التي تتصل بالمذهب الاسماعيلي كالفقه والتفسير[٣]. وقد بلغ الثراء المعرفي غايته، بالرغم من ان الايديولوجيا الفكرية والدينية للفاطميين تختلف عن الثقافة الدينية التي كانت سائدة في مصر إلا أنهم بخبرتهم السياسية استطاعوا ان يترجموا أفكارهم لتتناغم مع فكر الآخر فنتجت "أنظمة فكرية ميتافيزيقية بالغة التعقيد" [٤] والثراء، لتصبح السلطة بيد الخليفة أو الإمام مزدوجة الصلاحيات فهي سلطة سياسية ودينية.

ولم يكتفوا بفتح مصر، بل عملوا على بسط سلطان الدولة الفاطمية على بلاد الشام واخذوا دمشق سنة (٣٥٧هـ) واستسلمت الحجاز طوعاً للمعز الفاطمي سنة (٣٥٩هـ) واستمرت السيادة الفاطمية على الحجاز في ما عدا مراحل متقطعة حتى سقوط هذه الأسرة . [٥]

ولعل مدة الازدهار الفاطمي كانت تقترن بإحكام سيطرة الإمام بالسلطة وعدم مشاركته لأحد، إلا ان هذا لم يدم طويلاً ففي نهاية عهد المستنصر أصبح زمام الأمور بيد الوزراء وقادة الجيش مما اضعف من سلطان الإمام الفاطمي. نتيجة الأزمات الاقتصادية والسياسية، لتتسبب بضعف الدولة وتولي الوزراء الصلاحيات الخاصة بالخليفة وتدهور البلاد وسقوط السلالة الحاكمة [٦].

لذا فان عصر الدولة الفاطمية يوصف بأنه ازهى العصور الأدبية التي رأتها مصر نتيجة حالة الرخاء والاستقرار الداخلي، فعصور الحضارة والازدهار غالباً ما تكون مادة خصبة للإبداع لاسيما الإبداع الأدبي بشعره ونثره.

---

٢٨٢. وينظر: تاريخ جوهر الصقلي -قائد المعز لدين الله الفاطمي-، د.علي إبراهيم حسن، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٣: ٩-١٠.

[١] ينظر: تاريخ الدولة الفاطمية: ١٣. وينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٨١-٢٨٢-٢٨٣.

[٢] ينظر: تاريخ الدولة الفاطمية: ١٣. وينظر: الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، جمال بدوي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٤: ٨-٩ .

[٣] ينظر: ديوان الإنشاء الفاطمي وجهوده الكتابية، سمير عبد الوهاب عبد ربه العساسفة: ٢٠ .

[٤] الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٥٦ .

[٥] ينظر: م.ن ٢٨٨ .

[٦] ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٦٠ .

**ثانياً: تشكلات النسق بين اللفظ والمعنى**

تتجه الخطبة [١] الفاطمية بشكل أساس إلى إنكار ثبات المعنى في منظومة النص، بوصفها خطاباً مؤسساتياً لتحويل مسار السلطة الدلالية من سلطة اللفظة إلى سلطة المعنى، من طريق تحليل الهوامش والفجوات والتناقضات التي تطرأ على النص.

ولاشك ان الفكر والإبداع يسيران جنباً إلى جنب فالمواجهات النسقية تختلط ببعضها كي تنتج نصاً يسوق أفكاراً ليمررها في سياقات متباينة، وان هذه الأنساق لا يشترط فيها مبدأ الصحة أو الحقيقة الجوهرية للشيء، فهي تصيب من زاوية النظر التي تفترض طريقة خاصة للمعالجة، وفق منطلقات معينة يفرضها نسق معين. لذا فهي صحيحة بحسب (رونيه ويليك) حتى وإن لم تصل إلى تفسير مُحدد ومقنع[٢]. وإن كل حقبة من تاريخ البشرية توجد مجموعة من الأفكار والقيم والحقائق المعرفية تحدد في ضوئها مفاهيم الإبداع، ومعايير الخطاب، بوصفه منتجاً فردياً أو جماعياً. وتنطلق مجموعة من العلاقات الهرمية المتفاوتة وبمستويات مختلفة، لتشكل الأعمال الإبداعية انساقاً تخفي أفكاراً عن مجالات ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية. لذا يتحتم على البحث إجراء عملية ربط الأنساق النصية الخطابية واللغوية بالأنساق المجتمعية في إطار علاقات جدلية أو تماثلية .

ولما كانت الخطابة قوة[٣]، فهي عادة نص متحرك على وفق الطرح السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني. المتحول دائماً، وانها تخضع لأصول وقواعد محددة وتشترط بالخطيب ان يكون ذا ثراء ثقافي ومعرفي لأن "الخطب الجيدة هي تلك التي تتسلح بمادة وافرة وفائضة –أكثر بكثير مما يستخدمه الخطيب" [٤]. وقد ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها الأثر الكبير في ازدهار الأدب لما له من أهمية في ترسيخ دعائم الحكم والإعلان عن فكرهم ومحاولة نشره بين الناس [٥]. وكانت خطبة (المعز لدين الله) أنموذجاً للخطاب المؤسساتي الذي يتلمس حقيقة الفكر الاسماعيلي بوصفه محركاً أساسياً لبنية الخطاب الفاطمي، وعلى وفق ذلك فان اللغة المباشرة للخطبة لا تمثل انعكاساً طبيعياً لفهم النص، وإنما بنية النص هي التي تنظم المعنى وتخلق مجموعة تجاذبات تسهم في فهم الحقيقة النسبية لا المطلقة.

---

[١] لبيان معنى (الخطابة) وتأصيلها ينظر: في بلاغة الخطاب الاقناعي –مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية الخطابة في القرن الأول نموذجاً–، د.محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢: ١٧–١٨–١٩.

[٢] ينظر: نظرية الأدب، رونيه وليك وأوستن وارين، تر: محي الدين صبحي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨١: ٤٣.

[٣] ينظر: الخطابة –الترجمة العربية القديمة–، أرسطو طاليس، تح: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٧٩: ٩.

[٤] فن الخطابة –اكتساب الثقة–، ديل كارنيجي، مكتبة الإسكندرية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١: ٣٩.

[٥] ينظر: في أدب مصر الفاطمية، محمد كامل حسين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، د.ط، ٢٠١٢: ١٧٥.

لذا فقد كانت بداية الخطبة مؤثرة وتستدعي الانتباه فقد بدأها بـ "الله اكبر، الله اكبر، لا اله إلا الله، والله اكبر الأعز الأقدر" [١] الخطبة بدأت بألفاظ التكبير لذا ينهض النص على ممكنات لفظية، أتاحت له مشروعية الدخول إلى موضوع النص الأساس في سياق تسارع تدفق الألفاظ، لتمهدها بعتبة تُفْتَتَح بها الخطبة وهي ألفاظ التكبير. بوصفها سلوكاً لفظياً عقائدياً إسلامياً لاحتوائه على التوجهات الدينية الثقافية التي تحمل تصورات عن الخالق وان كل شيء سواه قابل للزوال وهو الكبير المتعال مرجعه الآية الكريمة ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[٣] فهو نص ظاهره أمر بالتكبير بما يملك من دعائم هذا الأمر لأنه مُسَوَغ فلم يتخذ ولداً، ولا يشاركه في الملك احد ولم يوال أحداً من قبل الذل والخضوع. فهي مسوغات للتكبير. إلا ان المعطيات السياقية للآيات السابقة تنبئ بنسق يقع خلف الخطاب الصريح فالآية الأولى من سورة المدثر مسبوقة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [٤] فهي أمر لترك السكون (التدثر) للقيام بمهمة تقع على عاتقك يا محمد (صلى الله عليه واله وسلم) والآية الثانية مسبوقة بقوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [٥] فهو أمر أيضاً للقيام بعمل، فالدعاء مكرس لله وهو وظيفة تقع على عاتق العبد تجاه ربّه فنصوص التكبير قائمة على وظيفة وعمل أي إنها نصٌّ (موظّف) مقيد بعمل لا يملك الحرية والخيار، فالتكبير كنسق ثقافي لفظي إشارة إلى العمل المتضمن للمعاني التي تحرك جوامد الأمور، فهو صرح من الادراكات المستقبلية التي تتطلب جهداً، فالتكبير في الآذان يعقبه وظيفة وهي الصلاة والتكبير قبل الإفطار وقبل الإمساك يعقبه القيام بوظيفة والتكبيرات المرفوعة في الحج هي الأخرى تلبية لنداء الحج .

فالتكبيرات في النص الفاطمي تندرج ضمن ثنائية (الأنا) بوصفها سلطة الخليفة للقائم من آل محمد (صلى الله عليه واله وسلم)، في حده الجسماني الثاني وأنه مكلف بوظيفة توصيل المعنى الباطني للشريعة [٦]. و(الآخر) المتمثل بالمجتمع المصري بكل طوائفه وفئاته [٧]. وهذه هي النقطة الجوهرية التي حاول الخليفة الفاطمي تحريك النسق المفاهيمي من خلالها لان تصيد موضوعية المعنى لا تتأتّى إلّا بواسطة زعزعة النسق ومخاتلته .

وألفاظ التكبير المحمول عليها المضمون الفاطمي لها دلالتها المؤثرة التي تهز الأبدان لاسيما أنها مرتبطة بالتكرار فهو يدل على أن هناك موضوعاً يستحوذ اهتماماً[٨] لذا فهو يحمل دلالات نفسية وانفعالية يفرضها سياق النص

---

[١] سيرة الأستاذ جؤذر -وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تص: أبي علي منصور الغريزي الجوذري، تح، د.محمد كمال حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د.ت: ٧٦ .

[٢] المدثر/ آية: ٣.

[٣] الإسراء /آية: ١١١.

[٤] المدثر/ آية: ١-٢.

[٥] الإسراء/ آية: ١١٠ .

[٦] ينظر: الاسماعيليون، فرهاد دفتري: ٢٩٣.

[٧] ينظر: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، إبراهيم أيوب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط١، ١٦-١٧، ينظر: تاريخ الدولة الفاطمية، حسن إبراهيم: ٦٤١.

[٨] الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠: ٦٧.

وينم عن موقف ديني ذات صيغة سياسية. وهي حيلة لتمرير ثقافة وافدة جديدة على المجتمع لتحدث الاندهاش السمعي ومفاجأة أذن المتلقي (الجمهور) فيتولد لديه الرغبة في استقبال ما سيأتي ذكره " الأعلى القاهر، الباطن، الظاهر، الأول الآخر، مبدع السموات والأرض بالقدرة، ومالكها بالعزة، ومدبرها بالحكمة، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة " [١].

فهي تجمع لفظي يبلغ من القوة النسقية تجعله قادراً على تحريك النسق المفاهيمي في النص من خلال محاولة تصيد موضوعية المعنى وهذه لا تتأتّى الا بواسطة زعزعة النسق ومخاتلته لإيجاد طريقة في تمرير الألفاظ التي تحاول جاهدة تثبيتها في الخطبة الفاطمية والمكونة من مصطلحات تقوم على علاقة جدلية بين الباطن / الظاهر[٢].

وهي أهم وظيفة يجد الخليفة الفاطمي نفسه مكلّفاً للقيام بها بوصفها محفزات نفسية موجهة للآخر، ولما كان للثقافة معجمها الخاص لذا فإنّ الخطاب الفاطمي حاول تغيير معجم الثقافة المتواتر، وحتى يكون للثقافة معانيها آثر الخليفة ان يبث ثقافته وفق منظور التعاقب الزمني والتواتر كي يمر عليها الزمن فتترسخ وتستقر.

ففكرة (الباطن/والظاهر) هي المركز الوظيفي لكل الأعمال الموكلة للإمام[٣]. فالظاهر هو الأعمال القائمة على العبادات العملية والباطن هو علم التأويل وهو من صميم العقائد الفاطمية وان الاعتقاد بهما واجب لان "ما كان ظاهره معجزاً كان باطنه أعجازاً، وما أعجز الناس ان يأتوا بمثل ظاهره فأتى لهم ان يأتوا بمثل باطنه"[٤] وهنا يتضح دور الأئمة الذين اقامهم الله للتعديل بين الظاهر والباطن [٥]. وأخذ الفاطميون قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٦].

دليل على وجوب تأويل القرآن، ففكرة الظاهر والباطن ساقها الخليفة في خطبته لتستقر في الأذهان والعقول، ويصبح من كان ضدها بمرور الوقت مسخراً لها حتى وان كان ضد هذه الثقافة وأفكارها؛ فالراسخون في العلم هم المؤمنون بوحدانية الله سبحانه وتفرده بالربوبية وهم أنفسهم المكلفون بالولاية وقد جاء المعز بلفظها في خطبته من خلال سياق الثناء على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) " وبعثه بالإمامة الى الثقلين، ليبلغ حجة الرب، ويوضع محجة الحق" [٧]، فالإمامة هي المحور الذي تدور عليه كل العقائد الإسماعيلية لأنّ ولاية الإمام الركن الأساس لجميع أركان الدين فدعائم الدين

---

[١] سيرة الأستاذ جؤذر –وبه توقيعات الأئمة الفاطميين–: ٧٦–٧٧ .

[٢] ينظر: كتاب المجالس والمسايرات، القاضي النعمان بن محمد (ت٣٦٣هـ)، تح: الحبيب القفي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي، دار المنتظر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦: ٥٤–٥٥ .

[٣] الإمامة الشيعية هي البيان، وهي عملية الفصل والوصل، فصل بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم. ووصل للإمامة الحقة التي قطعها المغتصبون للسلطة. ينظر: دراسات إسماعيلية، د.بوبة مجاني، جامعة منتوري، فنسطينة، الجزائر، ط،٢٠٠٢–٢٠٠٣. ١٠؛ وينظر: طائفة الإسماعيلية – تاريخها. نظمها. عقائدها، د. محمد كامل حسين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٥٩، ١٤٨.

[٤] ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تح:محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٤٩: ١٠٠–١٠١ .

[٥] ينظر: م.ن: ١٠٢

[٦] آل عمران / آية: ٧.

[٧] سيرة الأستاذ جؤذر – وبه توقيعات الأئمة الفاطميين: ٧٨.

عندهم هي الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية [١]. وقد الح عليها المعز في خطبه كثيراً ليبني أنساق الثقافة كما يبنى قصوره فمثلما اهتم بالعمران كصرح عمراني تنبئ له بالبقاء فقد حاول ان يبني انساق الثقافة في خطبته كي تمارس دورها بوصفها محفزاً على التجدد والانبعاث كتيار دافق يصب في الحاضر ويرفده بمكونات هذه الحضارة العقائدية ليأخذ هذه الألفاظ النسقية، ومن ثمّ يبدأ بتفسيرها بعد الصلاة على محمد وآله أفضل الصلاة "وعلى الأئمة المهديين، ومن عترته الكرام الابرين، الذين اختارهم للخلافة، وارتضاهم للإمامة "وأكد بوصية الرسل حجتهم وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلى أفضل الوصيين، وعلى أمه سيدة النساء، خامسة أصحاب الكساء، صلوات الله عليهم، وعلى أمير المؤمنين المهدي بالله والقائم بأمر الله"[٢] فهو التفسير المنطقي والشرح لما سبق قوله عن الإمامة فهم تابعون للإمام (علي) (عليه السلام) وهم خلفاؤه وأحفاده، وهو ترسيخ وتأكيد للنسب أي أنهم أحق الناس بالخلافة. فمن كان ضد هذه الثقافة نجده ينتبه لها أولاً ومن ثم ينفي عن نفسه تبني ثقافة دخيلة عليه إلا أنه حتى في نفيه هذا إنما هو إثبات لولادة ثقافة جديدة وهي "القول بضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، والنص على الإمام يكون من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة بالإعقاب "[٣] والفكرة الأساسية التي مفادها الظاهر؛ القائمة على المحسوس والباطن اللامحسوس ولا يعرفه الا الراسخون في العلم؛ وهم الأئمة وان تأويل الباطن من عند الله خص به الإمام علي بن أبي طالب "عليه السلام" فكما أن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) قد خُصّ بالتنزيل الظاهر، فكذلك الإمام علي (عليه السلام) خصّ بالتأويل/الباطن، لِتُكَوّن الثنائية قائمة على النبوة/ظاهر، الإمامة/باطن خُصَّ بالتأويل الباطن فالأئمة هم الذين يدلون الناس على إسرار الدين وليس لأحد غيرهم هذا الحق الذي جاءهم بأمر الله تعالى[٤]. فالإمامة وظيفة وليست ترفاً سياسياً، لذا فإنّ الاستهلال بالتكبير إنما هو نداء لوجود وظائف تقع على عاتق الإمام؛ لان التأويل يترتب عليه شرح مقاصد الدين وأعماله الواجبة والمستحبة. اما حركة النسق كمعطى أولي تجده يوظّف الخطبة بوصفها مواجهة مباشرة بين الأنا والآخر لتخطي حدود الزمان والمكان وأن الآخر إنما هو جمهور؛ بمعنى ان الألفاظ تمر بحالة ظرفية والحالة الظرفية لا تغير المعنى الذي ولدته الألفاظ والآخر بوصفه جمهوراً قادراً على استلام الثقافة الجديدة ونشرها لان الثقافة تشكل مؤسساتها التي تخدمها في إنتاج المعنى، والخطابة عوضت في انتشارها، كخطاب مؤسساتي عن وجود الشعر فهي (الخطابة) كتلة لانتاج المعاني بشكل كبير جداً. فلحظة الخطاب لها من الكثافة بحيث تكون كتلة ثقافية تشبه كتلة زمن الشعر (الجاهلي) لان الثقافة عادة تخترع وسائلها وآلياتها بحسب الحالة الظرفية التي تحاول زرع جذورها فيها. فصارت تعطي (المخترع) (الإمام) شيئاً لا يجده في غيره؛ أي تعطيه من المبررات التي تسوغ له بموجبها بما لا تسوغه لغيره لذا صار الإمام ينتج الثقافة ويصنع المعاني دون ان ينتبه احد؛ فصارت الخطابة مصنع الأنساق بوصفها خطاب سلطة. فلا يحاكم (الإمام) على مقولاته. فكما غير الفاطميون معالم العمران وارتبط عمرانهم بمسميات ارتبطت بالوجود الفاطمي في مصر منها تسمية العاصمة بالقاهرة المعزية. وبُنِي الأزهر الذي أدى دوراً كبيراً في نشر العقائد الإسماعيلية. وأصبح بعد ذلك جامعة وهي الأولى من

---

[١] بنظر: طائفة الإسماعيلية: ١٥٥ .

[٢] سيرة الأستاذ جؤذر –وبه توقعات الأئمة الفاطميين–: ٧٩.

[٣] طائفة الإسماعيلية: ١٥٣ .

[٤] ينظر: طائفة الإسماعيلية: ١٦١-١٦٢ .

نوعها في العالم[١] فكما أنتجت الخطابة الأنساق. كذلك أنتج العمران انساقاً جديدة شكلاً ووظيفةً، لتحدث تغيرات نسقية حسية متضمنة فكرة الظاهر، وتغيرات لا حسية من طريق تسويق ثقافة (الإمام) والتأويل لتعزيز فكرة الباطن. وان الخطابة نتاج محصن وقادر على المقاومة والبقاء لان الثقافة تخدم وسيلتها التي تتحصن بها وتحصنها وهي الخطابة فهي من تجليات الحضارة والاستقرار، لان البناء والعمران راهن الإمام على بقائه واستمراره كانساق تنتج معاني العقائد الإسماعيلية والخطاب المؤسساتي الفاطمي له ان يتشكل كيفما يشاء، فحصانته التي تحصنه سوغت له ذلك، وفاعليته في تبليغ الخطاب، وكفاءته وقدرته البلاغية [٢] والجمالية مكنته من تحقيق الأهداف المتوخاة منه، ولتمرير خطابها السياسي والديني للتعريف بالفكر الاسماعيلي وترسيخه، لأنّ التطور الحاصل في الخطاب الفاطمي لم يكن في الداخل فحسب وانما هو استجابة للتطور الحاصل في الخارج، لانه (الخطاب) يمتلك معاني متغايرة فلا يمكن الإمساك به. فالخطابة تتلاعب بالحركة الذهنية في التفاعل الثقافي كله، لأنها مواجهة بين المرسل والمرسل اليه، وهذه المواجهة تكون حسية لذا فذهن المتلقي يتشتت ويؤسر في الوقت ذاته، فالمؤثرات الفيزيائية مشتركة بين المرسل والمتلقي ينتج عنها شعور بالانقياد والاستجابة لما يُقال، دون اخضاع الرسالة إلى تفسيرات وتأويلات فلا مجال في آلية الخطبة لذلك، ولا وجود لسلطة على الخطاب في ذلك الوقت فلحظة (الآن) التي يشترك فيها المرسل والمرسل اليه تبدد أي فرصة للامساك بالألفاظ لأن المعنى نفذ إلى الأذهان واحدث التأثير المراد.

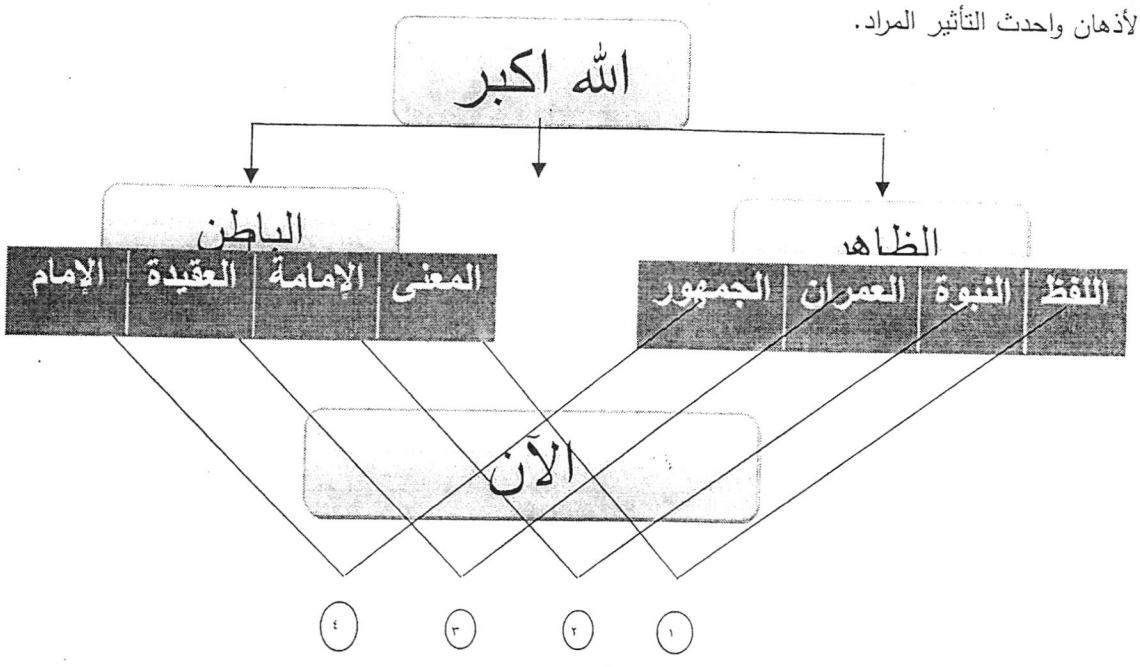


**تشكلات النسق في خطبة المعز بين اللفظ والمعنى**

فأصبحت الخطابة قوة وسلطة تضاف إلى سلطة الإمام فهو خطاب يحمل البرهان، والدليل، والصيغة البلاغية، في الوقت ذاته، لأن أخطر ما كان يواجه الخطاب الفاطمي الدين والمجتمع.

---

[١] ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٨٦.

[٢] أهتم الفاطميون بالمحسنات البديعية واللفظية حتى باتت من أميز خصائص الأسلوب لديهم. ينظر: في أدب مصر الفاطمية: ٣٣٢.

فالألفاظ التي يتضمنها الخطاب اشارات لأميز مسائل العقيدة، وعلى الرغم من الخوف على المذهب، الا ان النسق الخطابي هنا مصاب بالعمى الثقافي، ولم يكن قادراً على تمييزها كألفاظ ترتبط بفكرة الظاهر والباطن. والإمام في قوله (الأول والآخر، الربوبية، التمام والكمال، الأزل والدوام) مما زيد من جرعة تأثير النسق لذا فقد انتقى لنفسه ألفاظ تقلل نسبة الخطر الثقافي الذي يهدد النسق الديني[١]. (كالشهادة له بالتوحيد)[٢] و (تبارك الله رب العالمين) [٣] و(الرحمن-الغفور-المحيط بكل شيء.....) [٤] فهي من صفات الإيمان المطلق التي تقلل نسبة الخطر الثقافي الذي يهدد النسق. لذا فإنّ من يتبع هذا المذهب هم عادة خارج النسق فهم في الهامش لان المتن مستباح من قبل النسق الثقافي السائد (مذهب أهل السنة والأقباط).

لذا فقد حركت السلطة النسق وأثارت سؤالاً ثقافياً دينياً من خلال خطبهم، وحولت النسق إلى مقولات حقيقة بعد أن كانت مغيبة وإن ظهرت فإنما تظهر على استحياء، ومن هنا تبدأ ثقافة إثبات الوجود كما يجب أن تكون لذا حاولت السلطة صناعة معاني ثقافية جديدة تفرض نسقيتها في الثقافة الراهنة.

إن نصّ الخطبة أنموذج لقالب نسقي حاولت السلطة ترسيخه في الكتابة العربية؛ لأنّ الذهن حين يتدرب على شيء لا ينساه فقد حاول الخليفة تدريب الكتابة على هذه الألفاظ لانتاج كائن كتابي يحمل ألفاظ الفكر الاسماعيلي، فهو تحول ثقافي على مستوى الكتابة وعلى مستوى الفكر.

**ثالثاً: تشكلات النسق بين الحقيقة والمجاز:**

أحس الإنسان منذ تكوينه الأول انه يعيش حياتين حياة واقعية وحياة خيالية، وعادة الحياة الحقيقية لابد من ان تكون مشروطة والخيالية غير مشروطة.

فللشاعر ان يقول ما يحلو له وما لا يجوز لغيره، والقاص يجوز له ما لا يجوز لغيره. وكلاهما موطن الجواز يكون اثناء القول الشعري، واثناء القص، اما خارجهما فلا يجوز له، لتصبح الجملة الثقافية يجوز للمجاز ما لا يجوز لغير المجاز[٥]. لذا فإنَّ مجالس الخلفاء كلها قصاص وشعراء وكتاب هذا يعني ان المجاز مهم ولا يمكن العيش بدونه ولا يمكن قتل المجاز وهذا تأكيد لمعنى ومفاهيمية المجاز .

وإدراك السلطة إن الحضارة والاستقرار تتطلب تراجع في الشعر وإعلاء من سلطة النثر، إنما هو إدراك لتراجع سلطة نمط من المجاز وتقدم مجاز آخر، ولاشك ان الخطاب المجازي على وفق تشكلاته النسقية الداخلية مكن النص من احتواء الذهنية العربية لنشر ما يريد النسق نشره فقط من دون البوح بباقي الأفكار والشعائر التي يحاول الإمام إخفاءها[٦]

---

[١] بوصف المجتمع المصري الأغلبية لأهل السنة والاقباط .

[٢] سيرة الاستاذ جؤذر: ٧٦.

[٣] م.ن: ٧٦.

[٤] م.ن: ٧٧.

[٥] ينظر: النقد الثقافي -قراءة في الأنساق الثقافية- ،عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٥: ٦٧.

[٦] وتتجلى بممارسة التقية حفاظاً على ترسيخ دعائم الدولة سياسياً ودينياً، ينظر: الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم: ٢٥٦.

لأحداث تواصل فكري بعيد المدى. والخطابة كخطاب تنظيمي اجتماعي هو مجازي لانه ينتقي ألفاظه ليقدمها بنفسه، فإغراء هذه الخطب بكونها تحوي على ألفاظ تثير الذهن أقوى من الإغراء الذي تحدثه التفصيلات، ليطلقها وينسحب فتشتغل الألفاظ في معاني كما يريدها هو دون قيود أو شروط، لتحررها من شرط الواقع (الحقيقة) وينتج بذلك مقاربة نسقية بين (الحقيقة/ظاهر) (المجاز/الباطن) بوصفهما ثنائيات نسقية يشتغل عليها الخطاب المؤسساتي الفاطمي، فمجازية الخطابة أحدثت (مخاتلة للذاكرة النسقية)، بأن أصبحت تضخ عليها أفكارها بسرعة لأنها شفوية، ومرتجلة، وبصورة دورية، ليحدث عملية إخراج وإدخال، اخراج القديم وادخال الجديد، لان عملية التفتيش عن ألفاظ معينة قادرة على استرجاع الأفكار التي بثتها خطبة ما، فثقافة (الإثارة والنسيان) حاولت السلطة بثها في خطبها، لأن الألفاظ سرعان ما تثير المتلقي بوصفها حقيقة ظاهرة الا انها سرعان ما تختفي من الذهن فآلية الخطاب قائمة على المشافهة وهي آلية تخاتل الذهن وتداعبه، من طريق إظهار اللفظ ليحدث الاستثارة الذهنية المطلوبة، وسرعان ما يفقد الذهن هذه الألفاظ الا ان بوصفهِ باطناً يبقى ومتى ما نُبش فيه يتراءى في الذهن كمجاز، يمد صاحبه بقوة نسقية قادرة على إخراج الأفكار القديمة وادخال الجديدة أو احداث تناغم فكري مع الثقافة الام لتصبح هناك تغذية للفكر في كل مرة يستقبل فيها هذا النوع من الخطاب .

وأصبحت الخطب المادة الموظفة داخل إطار الدولة، بمثابة المغذي الذي يضخ الأفكار في أوردة الآخر ليصبح الخطاب المؤسساتي الخطاب الوحيد الذي يستقبله الذهن من طريق إغلاق أي رافد آخر يزاحم هذا الخطاب ويوازيه، فقد رُفع اسم الخليفة العباسي من الخطاب وذكر اسم الخليفة الفاطمي[١]، وهذا أول ادخال واخراج قام به الإمام الفاطمي. حيث أدخل الخليفة الفاطمي واخرج الخليفة العباسي ليمارس الهيمنة النسقية على الخطاب الداخل فكما أطبق الخليفة على العاصمة الفاطمية ببوابتين شمالية وجنوبية [٢] لتحصين الدولة ضد أي عدو خارجي فإنه مارس الهيمنة الذهنية نفسها على المتلقي الفردي والجماعي بطرائق متخفية لترسم تمثلاته الذهنية وآفاقه التأويلية جغرافياً. ولترسخ قيماً ومقولات وسلوكات جديدة لتأسيس نسق مغاير مرتكزاً على أنظمة الخطاب التي تسوق للفكر الآخر لأحداث صحوة فكرية خاصة، لاسيما وان الألفاظ المستعملة موجودة قبل ان تدخل الخطاب وموجودة بعدها، فالألفاظ موجودة قبل ان تكون مرتبطة بالإمام الفاطمي فمن الممكن قولها من دون الدعوة إلى مذهب ما، فعملية التحويل والتغيير التي أرادها الخليفة أو الإمام إنما هو تحويل من صلب الفكر البشري عامة، ولا يوصف بكونه بدعة فهذه الألفاظ إنما هي ألفاظ الطبيعة البشرية المؤمنة بوجود الخالق فالتوحيد [٣] والبرهان[٤] والأزل[٥]... موجودة في الكتب المقدسة وقائمة عليها. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٦] وعن التوحيد قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٧] وباتت الخلافة الفاطمية، توصف بأنها ظرف ثقافي له أسبابه، وليس ظاهرة كتابية فحسب، لذا حاولت من طريق تمرير ألفاظها كعلامة

---

[١] ينظر: ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية. ٣٥٨هـ - ٩٦٨هـ، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، ٢٠٠٧، سمير عبد الوهاب عبد ربه العساسفة الحباسنة، ٢٠٠٧: ١٥ .

[٢] ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٨٦.

[٣] ينظر: سيرة الأستاذ جؤذر: ٧٦-٧٨ .

[٤] ينظر: م.ن: ٧٨ .

[٥] ينظر: م.ن: ٧٦ .

[٦] النساء / آية: ١٧٤.

[٧] الإخلاص /آية: ١.

ثقافية تنبئ بوجود فكر مختلف الا انه من صميم فكر الآخر ومكمل له. فالقائم لم يعلن شريعة جديدة. وكان من وظيفته الكشف عن المعنى الباطني للشرائع السابقة [١] فهو ظرف ثقافي حاول الإمام إرجاعه إلى زمن الإمام علي (عليه السلام) وأولاده النجباء، فلابد من ملء الفراغ الرمزي بخلافة تمثل امداداً طبيعياً لما بدأه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا لا يتطلب الإتيان بما هو جديد بقدر ما تتطلب الأكمال والمغايرة. فألفاظ الإمام التي مررها كرموز ثقافية حاولت إذكاء شعلة خلافة أمير المؤمنين، وإبقاءها متقدة فقد تُرجم كمنظومة عمل لا خطاب ثقافي فحسب، لأنها بكل خصائصها الفكرية لا تختلف عن المذاهب الإسلامية والدينية الأخرى وقد صاغها الفاطميون كمشهد اجتماعي من خلال المناسبات والاحتفالات بالمناسبات الدينية بشكل مبالغ فيه كدالٍ/ظاهر، يمثل جانباً حضارياً يمتد إلى طبيعة المسلمين في اظهار دواعي الفرح في العيدين، الا ان تبنى معطيات التعامل مع الأعياد والمناسبات في عملية التعبير الظاهر، وتفريعات هذه الاحتفالات، باتت تتخذ سلوكيات وأنواع مختلفة لأنهم "كانوا يحتفلون بستة موالد: مولد النبي (صلى الله عليه واله وسلم)، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد فاطمة بنت الرسول، ومولد الحسين، ومولد الحسين، ومولد الخليفة الحاضر"[٢]، وهذه الأعياد إنما هو عملية احتكار المدلول / الباطن في مشروعية تأويل هذه الدوال لتغييب المعنى ولو لفترة مؤقتة. فهذه الاحتفالات كرموز ظاهرة تعبث داخلياً بالنسق وتحاول قلب الحالة الثقافية.

فعملية الاحتفال بحد ذاتها هي طابع ديني مستحب ظاهرياً لإكساب التوازن الدلالي (الديني) حيويته من خلالها ومن مظاهرها، وضع سماط ضخم يواجه مجلس الخليفة وتنشر عليه صنوف الفطائر والحلوى، وقد كان بداية الاحتفال بالمولد النبوي في القرن الرابع الهجري كوثيقة مهمة تقترن بالدولة الفاطمية بوصفه تكريماً لشخص رسول هذه الأمة[٣].

وشكل المولد النبوي مرموزاً آخراً يضاف إلى المرموزات الثقافية ليحدث أزمة نسقية ومفاهمية، تحقق بعد ذلك توازن دلالي على صعيد الظاهرة الثقافية التي تمده بعناصر بقائه وديمومته. فكما بقى الجامع الأزهر كحالة ثقافية عمرانية، بقي الاحتفال بالمولد النبوي كحالة ثقافية شعائرية، لتحقق الظاهرة الثقافية ماهيتها وتضمن بقاءها وديمومتها، لان هناك مغذيات لفظية تحفر عميقاً وهذا هو المدلول/الباطن، الذي أراده الإمام من تكبيراته المبكرة في النص، ليُصبح المجاز بعد ذلك ضرورة لديمومة الثقافة وتأرخَتُها، لاسيما وان الخطابة كخطاب مجازي قائم على المشافهة التي تحتم عليه الاشتراك الفيزيائي بين المرسل والمرسل اليه فالمؤثرات بينهما واحدة، مما يُحدث الإدراك الحسي الذي يوصف بأنه: "يناسب الانتقاش، فكما أن الشمع يكون أجنبياً من الخاتم، حتى إذا اطبقه وعانقه معانقة ضامّة رحل عنه بمعرفة ومشاركة صورة، كذلك المُدرِك يكون أجنبياً عن الصورة، فإذا اختلس عنه صورته عقد معه المعرفة؛ كالحس يأخذ من المحسوس صورة يستودعها الذكر فيتمثل في الذكر وإن غاب عن الحس"[٤] فعملية المواجهة هذه يترتب عليها تحقيق الأهداف الاستلابية التي مارسها المرسل تجاه المرسل اليه لأنَّ في الخطابة قوة[٥]. وقوتها تكمن في احداث اهتزاز البنية النسقية التي تتبناها الثقافة.

---

[١] ينظر: الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-: ٢٩٣ .

[٢] ينظر: في أدب مصر الفاطمي: محمد كامل حسين: ١٥٧.

[٣] ينظر: ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية: ١٧ – ١٨ – ١٩.

[٤] الإدراك الحسي عند ابن سينا: بحث في علم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٠، ٤٦.

[٥] ينظر: الخطابة – الترجمة العربية القديمة: ٩.

والجنوح نحو تغير الدال من طريق آليات الاشتغال الفكرية، التي تسوقها (الخطابة) لتصبح صالحة لكل زمان ومكان وصِيغة ذات صبغة دينية لا متناهية لأحداث طفرة فكرية تأملية يُبنى عليها مصير الثقافة، لإيجاد مكان لها مع الأفكار والمذاهب الأخرى. فالصوت وذبذباته صعوداً ونزولاً وحركة اليدين والعينين جميعها تشترك مع الألفاظ الظاهرة ليترجمها العقل، فتتداخل مع مصطلحات الثقافة النسقية الام لكون الثقافة هي المدّون الأساس للنص، وهي أداة لتسويق الفكر المذهبي، لإنكار ثبات المعاني وصياغة معانٍ جديدة في منظومة النص التي توصف بكونها في صيرورة دائمة، وتنتج عنها تراجع في المفاهيم الثقافية السائدة، وتموضع البنى النصوصية في انساق تحيل إلى مدلولات باطنية لا نهائية لان الحركة النسقية حالة مستمرة لا نهائية تولد عنها ثنائيات متعارضة للمشروع الفاطمي وهي (الأنا / الآخر) ترتب عليه ثنائية فرعية متمثلة بـ(الحقيقة / المجاز) أخذت على عاتقها تحريك الأنساق النصوصية والتي بدورها تمثل انعكاساً طبيعياً للعالم من طريق خلق تجاذبات تسهم في فهم المعنى.

متجسداً بالرسم الآتي:

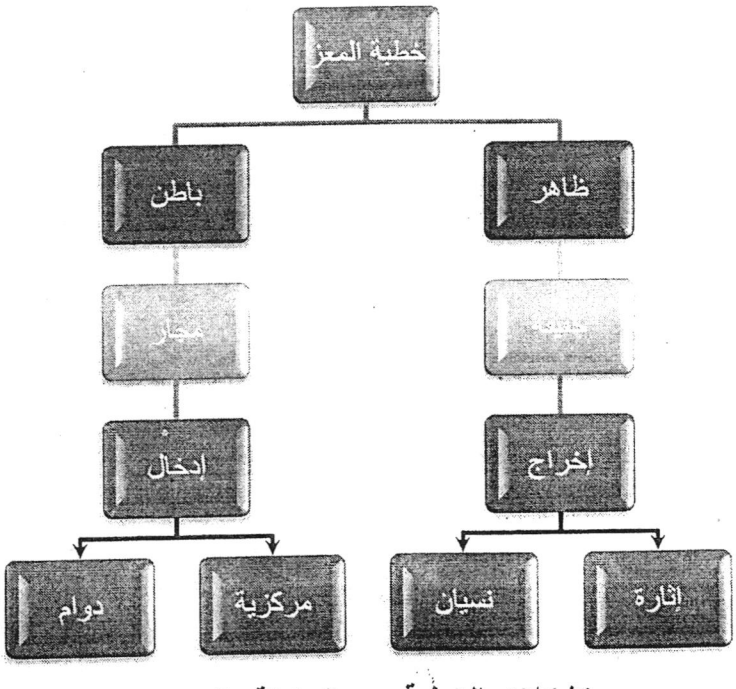


**تشكلات الخطبة بين الحقيقة والمجاز**

ومحصلة هذا التحول الثقافي الذي اثر على الذهنية العربية، أن أصبحت العلاقة بين الخطاب المؤسساتي (الخطبة) بوصفه خطاب سلطة يمثل الأقلية الشيعية هو مركز الظاهرة الثقافية، بعد أن كان هامشها، لانه تُرجِم كمنظومة عمل استطاع بواسطته سحب التاريخ لصالحها من طريق الخطاب الذي أرخ لوجود ظاهرة ثقافية لا تزال باقية وراسخة في المجتمع المصري سواء من خلال العمران، بوصفه ثقافة استعمار(*) حيث استطاع أن ينتج بناء يصنع المعاني ويسوقها، مثلها مثل الخطابة بوصفها مصنعاً للمعاني الإسماعيلية، فباتت الثقافة الوليدة كتلة فكرية لكثافتها فاستعمرت الفكر وأصبحت تزاحم النسق السائد لتتغلب عليه وتنتج ثقافة من صميم انساق الثقافة الإسلامية، الا انها لم تكتف بالظاهر اللفظي وانما تجاوزته إلى الباطن المعنوي لان المعاني أرسخ وأبقى وأكثر دواماً، كالأبنية العمرانية التي تتصارع مع

(*) من الاعمار بالمعنى الموجب لا السالب.

الاختلاف الفكري والثقافي، فهي قادرة على تجديد نفسها بنفسها من خلال ثنائية الحقيقة والمجاز، لأنّ الحقائق متغيرة فاللاحق ينفي بوجوده السابق الا أن المجاز بوصفه باطناً قادراً على التجديد وفرض نفسه وهيمنتها على الحقائق فهي محصنة بالقدرة التأويلية فلا يمكن أن يزاحمه خطاب آخر، لان الثقافة خدمت وسيلتها التي اخترعتها فأصبحت قادرة على استيعابها والحفاظ عليها.

فلا وجود لأي سلطة تحكم المجاز بوصفه باطناً لانّهُ يتلون ويتشكّل بحسب الظرف الثقافي الذي يمر به فالبيت الذي يسكن فيه النسق هو المجاز.

الخاتمة:

١-توصف الدولة الفاطمية بأنها الأنموذج الأوحد للدولة المذهبية في التاريخ الإسلامي عموماً. فهي دولة شيعية قامت على مبدأ الانتساب إلى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) عن طريق الإمام علي (عليه السلام) وسيدة نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام).

٢-تنتسب الدولة الفاطمية إلى المذهب (الاسماعيلي) نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بوصفه الناطق السابع، الذي لم يعلن شريعة جديدة. لكن القائم قد ظهر في زمن الستر المطلق، فإنَّ تنزيله الذي تكوّن من تأويل المعاني الباطنية للشريعة بقى مستتراً أيضاً. وبذلك فان القائم حدد خلفاء له، ومن خلالهم حقق حده الجسماني الثاني.

٣-قامت الدولة الفاطمية بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي. فسياسياً استطاعوا السيطرة على شمال أفريقيا بعد استئثار العباسيين بالسلطة، وتوسعوا بعد ذلك إلى أخذ المغرب وثم مصر التي أصبحت مقر الخلافة الفاطمية. ثم عملوا على بسط سلطانهم على بلاد الشام والحجاز. اما اجتماعياً فقد عُرف الفاطميون بالثراء الذي شمل كل مظاهر الحياة في دولتهم فكثر البذخ الذي قلّ ان نجد له مثيل في أي عصر من عصور مصر الإسلامية. واهتموا بنشر مظاهر الزينة والترف كما اكثروا من الاحتفالات والأعياد، التي باتت تظهر في شيء من الأبهة والعظمة. اما ثقافياً فقد أولوا اهتماماً كبيراً بالثقافة فعملوا على نشر الثقافة الدينية والمذهبية وشجع الخلفاء والوزراء رجال العلم والأدب وأسبغوا الأموال الطائلة للنهوض بالثقافة والعلم. وقد أصبح الجامع الأزهر ذا شهرة فاقت شهرة جميع المساجد. لاسيما بعد تحويله إلى معهد للدراسة وتوفير مستلزمات الدراسة كافة من مدرسين وكتب وغيرها.

٤-تعد الخطبة من أهم منتجات الثقافة والفكر الاسماعيلي الفاطمي بوصفها خطاباً مؤسساتياً حول مسار السلطة الدلالية من سلطة اللفظ إلى سلطة المعنى .

٥-أضحت الخلافة الفاطمية كحقبة من تاريخ البشرية تملك افكاراً وقيماً وحقائقاً معرفية تَتَحَددَ في ضوئها مفهوم الإبداع فشكلت الاعمال الابداعية منتجاً يسوق انساقاً ثقافية تخفي افكاراً مذهبية عميقة.

٦-توصف الخطابة بانها قوة. وهي نص متحرك وفق الطرح السياسي والاجتماعي والديني، لذا فهي تشترط قواعد محددة في الخطبة والخطيب نفسه فلابد من ان يكون ذا ثراء ثقافي ومعرفي.

٧-كانت خطبة الخليفة (المعز لدين الله) وهو الخليفة الفاطمي الرابع- تتلمس حقيقة الفكر الاسماعيلي وهي المحرك الأساس للخطاب الفاطمي عامةً.

٨-إن بنية نص الخطبة نظمت المعنى وخلقت مجموعة تجاذبات أسهمت على فهم الحقيقة النسبية لا المطلقة.

٩-بُنيتْ الخطبة على مبدأ (وظيفي) من طريق عبارات التكبير كمرموزات ثقافية تنهض على ممكنات لفظية أتاحت له مشروعية الدخول إلى موضوع النص بعد المرور بتكرارات متتالية للألفاظ الدالة على ان هناك وظيفة وعمل مُنْتَظر.

١٠- النقطة الجوهرية التي حاول الإمام تحريك النسق المفاهيمي من خلالها هي ثنائية (الأنا) بوصفه سلطة و (الآخر) المتمثل بالمجتمع الفاطمي بكل طوائفه وفئاته.

١١- ان اختيار ألفاظ التكبير وتكرارها في الخطبة له دلالاته المؤثرة التي تهز الأبدان وهي حيلة لتمرير ثقافة وافدة على المجتمع من طريق الاندهاش السمعي ومفاجأة الاذن بها ليتولد لدى الآخر الرغبة في استقبال ما سيرد ذكره.

١٢- لكل ثقافة معجمها الخاص. لذا آثر الإمام الفاطمي تغيير معجم الثقافة المتواتر من خلال بث ثقافته على وفق منظور التعاقب الزمني والتواتر كي يمر عليها الزمن فتترسخ وتستقر.

١٣- أول عمل أو وظيفة يجد الخليفة (الإمام) نفسه مكلفاً ببثها هي فكرة (الظاهر والباطن) بوصفها مركز الأعمال القادمة فجميعها تتوالد منها.

١٤- توصف الإمامة المحور الذي تدور عليه العقائد الفاطمية لذا نجد الحاحاً واضحاً في الخطبة على لفظة الإمامة يحاول تشيد الثقافة بها كما شيد القصور والجوامع التي كُتِب لها الخلود والبقاء رغم محاولات طمس الثقافة.

١٥- لم يكتف الخليفة بالإشارات والرموز بل اخذ في خطبته يشرح مسوغات الإمامة كترسيخ للنسب وتثبيت للثقافة الجديدة خاصة أن القرآن الكريم يوضح ذلك في آيات كثيرة، أي ان الثقافة الوافدة من صميم الفكر الديني لا طارئة عليه.

١٦- إن فكرة الظاهر قائمة على المحسوس، والباطن قائمة على اللامحسوس فلا يعرفه إلا الراسخون في العلم. وهم الأئمة فكما خُصَّ الرسول (صلى اله عليه واله وسلم) بالتنزيل الظاهر، خصَّ الإمام علي (عليه السلام) بالتأويل (الباطن). لذا فالإمامة وظيفة وليست ترفاً سياسياً.

١٧- حركة النسق تصل بالخطاب الفاطمي بوصفه (خطبة) قائمة على المواجهة المباشرة بين (الأنا والآخر)، إلى تخطي حدود الزمان والمكان ينتج عنها سقوط عملية التدقيق والتركيز اللفظي والاكتفاء بالاستقرار والترسيخ المعنوي وهذا هو مطلب السلطة.

١٨- أصبح الإمام بوصفه باطناً ينتج الثقافة ويصنع المعاني من دون ان ينتبه اليه احد فله حصانته التي حصنتها به الثقافة .

١٩- نظراً لاختلاف الثقافة الفاطمية كفكر اسماعيلي عن ثقافة الآخر المتمثل بالأغلبية من أهل السنة، والأقباط، لذا فقد كان هناك خطر يهدد الخطاب فانتقى النسق الوافد ألفاظ تقلل حدة هذا الخطر بوصفها ألفاظاً تملك مقدمات مشتركة بين الأنا والآخر، لتقلل نسبة الخطر الثقافي الذي يهدد النسق.

٢٠- لَمّا كانت الخطابة أحد أنواع الخطاب المجازي، كتشكل نسقي داخلي، لذا تمكن النص على احتواء الذهنية العربية لنشر ما يريد النسق نشره تحت ذريعة المجاز.

٢١- الإغراء الذي تقدمه الخُطبة، يكمن في إطلاق الألفاظ التي تثير الذهن ثم تنسحب من دون قيود لينشغل الآخر، في المعاني المجازية التي أشارت اليها تلك الألفاظ.

٢٢- يشتغل الخطاب المؤسساتي الفاطمي على المقاربة النسقية بين (الحقيقة / الظاهر) و (المجاز / الباطن) فمجازية الخطابة أحدثت مخاتلة للذاكرة النسقية فأصبحت تضخ عليها أفكارها بسرعة لأنها شفوية ومرتجلة لتحدث عملية ادخال الثقافة الجديدة واخراج القديم.

٢٣- محاولة بث ثقافة (الإثارة والنسيان) لان الألفاظ سرعان ما تنسى بعد أحداث الإثارة المطلوبة الا ان المعنى بوصفه باطناً سرعان ما يسترجعه الذهن كمجاز يمد صاحبه بقوة نسقية قادرة على اخراج الأفكار القديمة وادخال الفكر الجديد.

٢٤- ان عملية التغير التي أرادها الإمام هي من صلب الفكر الإسلامي فالألفاظ موجودة قبل الخطاب الفاطمي وبقيت موجودة بعده فهذه الألفاظ هي ألفاظ الطبيعة البشرية ولا توصف بانها بِدعة لأنها مرتبطة بالشخصية العربية المسلمة المؤمنة بوجود الخالق.

٢٥- باتت الخلافة الفاطمية توصف بأنّها ظرف ثقافي له أسبابه وليس ظاهرة كتابية فحسب مرجعه الإمام علي (عليه السلام) وأولاده النجباء، فكان لزاماً ان يُملأ الفراغ الرمزي بخلافه تمثل امتداداً طبيعياً لآل بيت النبوة وهذا لا يتطلب الإتيان بما هو جديد بقدر ما يتطلب الاكمال والمغايرة.

٢٦- شكلت الاحتفالات الدينية بوصفها مشهداً اجتماعياً يُترجم الخطاب المؤسساتي كدوال / ظاهر. أخذت تعبث بالنسق الداخلي وتحاول قلب الحالة الثقافية نتج عنها مدلول / باطن مجازي رسخ الحالة الثقافية الجيدة وكتب لها الخلود والاستمرار .

٢٧- أصبح المجاز ضرورة لديمومة الثقافة وتأرختها، لاسيما وان الخطابة هي خطاب مجازي قائم على المشافهة التي تحتم عليه الإشراك الفيزيائي، بين الأنا والآخر، ليحدث التأثير المطلوب الناتج عن الإدراك الحسي بين طرفي الخطاب، لتتحقق الأهداف الاستلابية التي يمارسها المرسل تجاه المرسل اليه فتصبح الخطبة صالحة لكل زمان ومكان.

٢٨- تراجع المفاهيم الثقافية السائدة، وتموضع البنى النصوصية، في انساق تحيل إلى مدلولات باطنية ونهائية، فتولد عنها ثنائيات متعارضة للمشروع وهي (الأنا / الآخر) و (الحقيقة / المجاز).

المصادر


- القران الكريم
- الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠.
- الإدراك الحسي عند ابن سينا -بحث في علم النفس عند العرب-، د.محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٠ .
- الاسماعيليون -تاريخهم وعقائدهم-، فرهاد دفتري، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠١٤ .
- تاريخ جوهر الصقلي - قائد المعز لدين الله الفاطمي-، د.علي إبراهيم حسن، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٣ .
- التاريخ الفاطمي الاجتماعي، إبراهيم أيوب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط١، د.ت .
- الخطابة الترجمة العربية القديمة-، أرسطو طاليس، تح: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٧٩ .
- دراسات إسماعيلية، د.بوبة مجاني، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، د.ط، ٢٠٠٢-٢٠٠٣.
- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية -منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري-، د.موسى لقبال، الشركة الوطنية، الجزائر، د.ط، د.ت .

- ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر-وجهوده الكتابية ٣٥٨هـ-٩٦٨م، أطروحة دكتوراه، سمير عبد الوهاب عبد ربه، جامعة مؤتة، ٢٠٠٧.
- ديوان المؤيد في الدين -داعي الدعاة-، تح: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٤٩.
- رسالة افتتاح الدعوة -رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية-، للقاضي النعمان بن محمد (ت٣٦٣)، تح: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٠ .
- سيرة الأستاذ جؤذر -وبه توقيعات الأئمة الفاطميين-، تص: أبي علي منصور العزيزي الجوذري، تح: د.محمد كمال حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت .
- طائفة الإسماعيلية -تاريخها.تنظيمها.عقائدها-، د.محمد كامل حسين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٥٩ .
- الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، جمال بدوي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٤.
- فن الخطابة -اكتساب الثقة-، ديل كارنيجي، مكتبة الإسكندرية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.
- في أدب مصر الفاطمية، محمد كامل حسين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، د.ط، ٢٠١٢.
- في بلاغة الخطاب الاقناعي - مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية- الخطابة في القرن الأول إنموذجاً.، د.محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢ .
- كتاب المجالس والمسايرات، القاضي النعمان بن محمد (ت٣٦٣هـ)، تح: الحبيب القفي وإبراهيم شيوح ومحمد اليعلاوي، دار المنتظر، بيروت، لبنان،ط١، ١٩٩٦.
- نظرية الأدب، رونيه وليك وأوستن وارين، تر: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨١.
- النقد الثقافي - قراءة في النساق الثقافية العربية-، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٥.